بسم الله الرحمن الرحيم

تطور مفهوم الأدب العربي

■ الأدب عند العرب في الجاهلية :

في العصر الجاهلي ـ وهو أقدم مايعرف من أدوار تاريخ الأدب العربي ـ لاتوجد نصوص تشير إلى أن كلمة (أدب) فيه كانت تعني ماتحمله في هذا العصر من معنى ، بل إن هذه الكلمة كانت قد عرفت في معنى ضيق جداً، وهو الدعوة إلى مأدبة أو وليمة ،وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد :

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى لاترى الآدب فينا ينتقــر

والجَفَلى : هي الدعوة العامة ، والآدب هو الداعي ، وينتقر أي يتخير أو يختار ، وبهذا يفتخر الشاعر بأنهم كانوا يقيمون المآدب في الشتاء ، ويجعلونها عامة لكل عابر سبيل إذ أنهم لم يكونوا يختارون من يحضر إلى تلك المآدب . وهذا معنى ضيق جداً ، وبعيد كثيراً عن معنى كلمة (أدب) في العصر الحديث .

ثم عرف العرب من معاني الأدب أنه الخلق المهذب ، والطبع القويم ، والمعاملة الكريمة للناس ، نرى هذا المعنى في النص الجاهلي الذي ورد عند عتبة بن ربيعة ، وهو يصف لابنته هند زوجها أبا سفيان ، من غير أن يسميه لها ، فقد جاء في هذا الوصف « ... بدر أرومته ، وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولايؤدبونه » . وواضح من هذا النص أن المراد به هو أنه ذو خلق نبيل ، وأنه يأخذ أسرته باتباع هذا الخلق النبيل . وفي رد هند بنته مايدل على هذا المعنى أيضاً ، إذ قالت : « إني سآخذه بأدب البعل » . تريد أنها ستعامله بالخلق الكريم الذي ينبغي أن يعامل به الزوج .

■ الأدب في عصر صدر الإسلام :

لما جاء الإسلام ووضعت أصول الآداب ، واجتمع المسلمون على أن الدين أخلاق يتخلق بها ، فشت الكلمة ،أما حديث (أدبني ربي فأحسن تأديبي) فعلى الرغم من صحة معناه إلا أنه حديث ضعيف قال عنه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (لايعرف له إسناد ثابت) ، ولكن في هذا العصر استخدمه شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغنوي بنفس المعنى إذ يقول :

لايمنعُ الناس منّي ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حُسنَ ذا أدبا

■ الأدب في عصر بني أمية :

أخذت كلمة (أدب) في عصر بني أمية معنى تهذيب السلوك الذي دلت عليه كلمة (أدب) في عهد النبوة، لكن اتسع هذا المعنى التربوي التهذيبي ، فأصبح معنىً تربوياً تعليمياً تثقيفياً وتهذيبياً . فقد ظهرت في العهد الأموي شخصية (المؤدب) ، وهو المعلم أو الأستاذ ، الذي كان يختاره الخلفاء والأمراء ومَن في حكمهم لتعليم أبنائهم وتهذيبهم ، وكان ذلك التعليم شاملاً لكل علوم العصر بلا استثناء .

وظل معنى (التثقيف) مفهوماً من كلمة التأديب في هذا العصر ، حتى أطلق على طائفة من ممتازي الأساتذة اسم (المؤدبين) ، وهم القائمون بأمور التعليم على النحو المعروف أيام بني أم ية ، وهو التعليم بطريق ا لرواية للشعر والأخبار ومايتصل بالعصر الجاهلي . وصارت كلمة (أدب) تدل منذ العصر الأموي على هذا النوع من الثقافة ، واتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة (الأدب) أن تصبح مقابلة لكلمة (العلم) الذي كان يطلق حينئذٍ على الشريعة الإسلامية ومايتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم .

■ الأدب في العصر العباسي :

وفي نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، كانت الدولة العباسية قد اتسعت كثيراً رقعتها الجغرافية ، وتوسعت دواوينها ، فكان من الطبيعي أن يُعنى العلماء والمفكرون بتزويد رجال الحكومة وكتابها بما يلزمهم من ثقافة وإرشادات، وقد ظهرت في تلك الفترة كتب كثيرة تحمل كلمة (أدب) في عناوينها ، وكان القصد منها هو تثقيف رجال الحكومة وكتابها ومن تلك الكتب (الأدب الكبير) ، و (الأدب الصغير) لعبدالله بن المقفع ، و(أدب الكاتب) لابن قتيبة .

فبعد أن عرفت حدود الأدب في القرن الثاني الهجري واشتهرت الكلمة ، بقيت لفظة (الأدباء) خاصة بالمؤدبين ، لاتطلق على الكتاب والشعراء ، واستمرت لقباً على أولئك في منتصف القرن الثالث ، ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة (حرفة الأدب) وأول من قالها الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٥هـ ، وذلك في قوله كما جاء في المضاف والمنسوب للثعالبي : (حرفة الأدب آفة الأدباء) ؛ لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم ولايؤدبون إلا ابتغاء المنالة، وذلك في حقيقة معنى الحرفة على إطلاقها .

وهكذا شهد القرن الثالث الهجري تحديداً لمعنى الأدب ،وأنه المأثور من الشعر والنثر ومايتصل بهما ، أو يفسرهما ، أو يدل على مواضع الجمال فيهما . فهذا محمد بن المبرد المتوفى سنة ٢٥٨هـ يقول في صدر كتابه (الكامل) : (هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب مابين كلام منثور ، وشعر موصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ...) ، وبنفس هذا المعنى سمى أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢هـ الباب الثالث من ديوان الحماسة الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم (باب الأدب) . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على

(كتاب الأدب) الذي عقده الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ في مؤلفه المشهور في الحديث والمعروف باسم (الجامع الصحيح) .

ولم ينتصف القرن الرابع الهجري حتى كان لفظ (الأدباء) قد زال عن العلماء جملة ، وانفرد بمزيته الشعراء والكتاب في الشهرة المستفيضة ؛ لاستقلال العلوم يومئذٍ وتخصص الطبقات بها .

■ محاولات لاحقة لتعريف الأدب (ابن خلدون أنموذجاً) :

لعل خير محاولة قام بها العرب لتحديد معنى (الأدب) تلك التي قام بها (ابن خلدون) في مقدمته ، إذ قال تحت عنوان (علم الأدب) : (الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم ، والأخذ من كل علم بطرف) .

■ مفهوم الأدب في العصر الحديث :

أخذت كلمة (أدب) منذ أواسط القرن الماضي تدل على معنيين :

١ ـ معنى عام ، يدل على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً .

٢ ـ معنى خاص ، هو الأدب الخالص الذي لا يراد به مجرد التعبير عن معنى من المعاني ، بل يراد به ـ أيضاً ـ أن يكون جميلاً بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل : الخطابة ، والأمثال ، والقصص ، والمسرحيات ، والمقامات .

وإذا استقرأنا تعريف الأدب ومفهومه لدى أدبائنا في العصر الحديث سنجد أن تعريفاته تتعدد بتعدد وجهات نظر من عرَّفوه :

١ ـ يورد الدكتور محمد مندور تعريفين للأدب يعتبرهما من أكثر التعاريف شمولاً وانتشاراً عند أدباء ونقاد ومفكري الغرب :

- التعريف الأول يقول : (إن الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية) . ويبين مندور أن التجربة البشرية عند الغرب تشمل التجربة الشخصية والتاريخية والأسطورية والاجتماعية والخيالية .
- التعريف الثاني يقول : (إن الأدب نقد للحياة) .

٢ ـ يعرِّفه الدكتور شوقي ضيف بأنه (الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القرَّاء والسامعين سواء أكان شعراً أم نثراً) .

عناصر العمل الإبداعي

لاشك أن هنالك علاقة تواصلية تفاعلية تحصل بين المبدع و النص والمتلقي وفق نظرية التواصل المبنية على عناصر التواصل اللغوي: المرسل والرسالة والمرسل إليه.

١- الأدب (النص / الرسالة) :

لاشك أن الأدب حاجة إنسانية ، لا غنى لأحد عنها، ولا بد من تلبيتها ، وأكاد أقول : إنها حاجة عضوية، مثلها مثل الماء، فالمرء يحس بشوق إلى الأدب، وكأنه ظامئ، بل هو كالمرآة، والإنسان يحتاج إلى أن يرى نفسه في المرآة، وفي العصور القديمة قبل اختراع المرآة كان الإنسان ينظر إلى ذاته في صفحة الماء، ولكن لا بد من فهم الأدب بمعناه العام الواسع، لا بمعناه الضيق المحدود، ونعني به كل أشكال التعبير الفني الجمالي عن الإنسان، سواء أكان التعبير بالكلمة أم بالصوت أم بالحجر أم بالجسم أم باللون، ومن هنا فإن الأدب يشمل الفنون كلها .

وظيفة الأدب :

وحين نتحدث عن وظيفة الأدب ينبغي أن نكون على دراية بأن الإبداع الأدبي فعالية اجتماعية، وهذا يعني أن الأدب تجربة إنسانية .

ومع أن وظيفة الأدب تتغير من عصر إلى عصر ، ومن مرحلة اجتماعية إلى أخرى ،فإنها تؤكد بأن الأدب الناضج وظيفته الدائمة تتمثل في تحريك الإنسان بكليته ، لكي يمكنه من المساهمة في تغيير واقعه الاجتماعي نحو الأفضل .

فمنذ عرف الأدب طُرح السؤال عن وظيفته، وهو سؤال قديم حديث، مثار في آداب الأمم جميعها، وعُدّ البحث فيه ضرباً من البحث في قيمة الأدب، وشرعية وجوده. وإذا ثبت مثلاً أنه نشاط عديم الجدوى، أو أنه لا يؤدي هدفاً ما، انتفى ـ عند قوم ـ مسوّغ وجوده، أو نظر إليه على أنه نشاط متدنٍّ، لا يعدو أن يكون ضرباً من المهارة اللفظية، والتنوق الكلامي اللذين لاطائل من ورائها.

واختلفت الآراء في وظيفة الأدب، فارتبطت باتجاهات فكرية، ونفسية، واجتماعية وغيرها. ولكن جماع الآراء المختلفة التي طُرحت في بيان وظيفة الأدب انطلقت من منزعين اثنين:

ـ أحدهما: يذهب إلى أن الفن عموماً ـ والأدب فرع منه ـ وظيفته أن يعلِّم، ويهذب، ويقوم بتحقيق هدف اجتماعي، إصلاحي، إعلامي، فهو أداة نافعة إن أُحسن تجنيدها في خدمة المجتمع وتربية النشء.

ـ وثانيهما: يرى أن الفن للمتعة والإطراب، وهو مجرد عن الغاية النفعية، ينشدُ الجمال، وتسلية النفس، من غير أن ينهض، أو يطلب منه النهوض ـ بأية وظيفة. اجتماعية أو خلقية، وقد ينطوي نشدان الجمال وإبداعه على غاية ما وقد يتجردّان منها، ولكن الفن ـ في جميع أحواله ـ لايضع في حسبانه مثل هذه الغاية، ولايسأل عنها.

وقد يغلو أصحاب هذا الاتجاه، فيذهب بعضهم إلى حدّ القول إن النفعية تفسد الفن.

وذهب قوم إلى الجمع بين غايتيْ المنفعة والمتعة، ورأوا أن إحداهما لا تتحقق إلا بوجود الأخرى، فربط بعضهم بين الأديب والجمهور حين ألحّ على الغاية وقالوا : إنما همّ الشاعر أن يعلّم ويُمتع .

وقد طرحت هذه القضية في تراثنا الأدبي مثلما طُرحت في آداب الأمم الأخرى، وعرف النقد العربي المنازع السابقة جميعها.

فوظائف الشعر عند العرب في الجاهلية عند نقادنا وظائف خلقية تعليمية ذات طابع نفعيّ، فالعرب، في الأغلب الأعمّ ـ لم تنظر إلى الشعر على أنه فن مجرد عن الهدف، غايته التنميق اللفظي، أو التشكيل الجمالي، أو الإمتاع والإطراب المجردان، بل ارتبط الشعر عندهم، بشكل واضح منذ نشأته ـ في العصر الجاهلي ـ وحتى تطوره ـ في فترات الإسلام المختلفة ـ بغايات لاتجرِّد الشعر من الوظيفة، ولا تجعله شعراً للشعر، أو فناً للفن، بل كانت أهمية الشعر، ومكانة الشاعر، تنبعان من طبيعة الدور الذي يؤديه، والغاية التي يسعى إلى تحقيقها.

ولقد اهتم النقد الأدبي عند العرب بالشعر خاصة، لأنه رأس الفنون الأدبية عندهم، وهو ديوانهم الحقيقي، وإذا كانت الوظيفة الخلقية ـ في جوانبها المختلفة كافة ـ شديدة الوضوح في الشعر، فإنها ـ من غير شك ـ في النثر أوضح، إذ الشعر أقرب إلى الجموح وأوغل في الخيال، وأبعد في الهيمان والانطلاق حتى وقرَ في نفوس قوم أن (أعذب الشعر أكذبه) .

وظيفة الشعر في العصر الجاهلي :

- الشاعر يحامي عن القبيلة، ويدافع عنها بالقول المؤثّر النفاذ، فكأنه صحفي هذا الزمان، أو رجل الإعلام في مواقعه المختلفة، يمجّد القبيلة، ويدافع عن سياستها، ويشيد بمآثرها وأعمالها، ويصوّر قوتها، ويهاجم الخصوم المتطاولين عليها، مشكلاً بذلك جهاز ردع، يُرهب العدو، ويخيف الخصم.

قال أبو عمرو بن العلاء مصوّراً فرط حاجة العرب إلى الشعر «الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب غيرهم..» ، وذكر ابن رشيق في العمدة نماذج من الشعر الذي قيل في الدفاع عن القبيلة، والانتصار لها من الخصوم تحت عنوان: «باب احتماء القبائل بشعرائها».

والشاعر مسجّل للمفاخرة والمآثر، ومؤرِّخ للفضائل والأمجاد، والشعر عندئذ كالملحمة البطولية، يدوّن تاريخ القبيلة، ويتغنى بانتصاراتها، ويسجل الأحداث العظام لتكون معلماً وهادياً للأجيال القادمة، يتعلمون منها المجد والشرف، ويرضعون بها لبان النخوة والمروءة.

ولكنك بنظرة سريعة إلى الساحة الأدبية في عصرنا الحاضر تعطيك صورة واضحة عن هذا الواقع المؤلم والمحزن الذي وصل إليه الأدب، وتتمثل هذه الحالة بهذا الطوفان الذي يملأ صفحات الدواوين والصحف والمجلات دون أن تترك أثراً يذكر لدى المتلقي وكأنها كتبت لتحفظ في بطون الدواوين وتملأ الصفحات والمجلات. فما هي الأسباب التي جعلت من الأدب بضاعة كاسدة لا تجد من يلتفت إليها أو يلقي لها بالاً؟ أهذه قيمة الشعر الذي كان ديوان العرب والوعاء الذي يحمل تراثهم وثقافتهم عبر الأجيال؟

٢- الأديب (المبدع / المرسِل):

لكل مبدع طريقته الخاصة للتعبير ، عما يجده من سدود مانعة ، ولماذا يبدع الإنسان ، ومن هم الأشخاص الذين ، يحرص على مخاطبتهم وكسبهم ، للوقوف في صفه إزاء عدد من القضايا ، التي يجد نفسه مرغمًا على التوافق معها ، خوفًا أغلب الأحيان أو اضطرارًا أو رغبة.

إن العمل الأدبي بكافة أجناسه إبداع فردي صرف وهو وإن كان مرآة لروح كاتبه وعاكسًا لثقافته ومبادئ مجتمعه الذي جاء منه ، فهو أيضًا حمَال أوجه ، قابل للتأويل ، منفتح باتجاه افتراضات كثيرة وقادر على بناء مستويات عدة من المعاني التي تتناسب وثقافة المتلقي ، فهو بعد أن يختم بتوقيع كاتبه يصبح ساحة للحوار المتواصل بين مبدعه ومتلقيه ولكل منهما حقوق متساوية في تأويله وتفسيره كلٌ حسب حالته الوجدانية وخلفيته الثقافية ، وقدرته على استنباط مدلولاته ، وبهذا يكون النص الأدبي مختلفًا عن غيره من النصوص فهو يبقى غير تام وغير منته ما دام أنه مع كل قراءة جديدة وقارئ جديد تعاد كتابته من جديد ويعاد تأويله من جديد ، وهنا تبرز فاعلية العلاقة بين القراءة والكتابة ، ويقصد بالقراءة هنا القراءة العميقة للنص والتي تتجاوز الحروف للمعاني والقدرة على التأويل التي تعيد له بكارته وعذريته في كل مرة تتجدد فيها قراءته . ويقصد بالكتابة هي القدرة على إنتاج النصوص التي تحمل في ثناياها أوجهًا عدة تتفاعل مع الحالة النفسية للمتلقي فيسقط عليها مشاعره وأحاسيسه وتجاربه الشخصية ،فتتكون رؤيته الخاصة به والمختلفة عن غيره .

إن وجود عدد من الأدباء الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعيه واحدة ، ويعيشون في ذات المرحلة، لا يحتم بالضرورة تماثلاً في إنتاجهم الأدبي وان كان المرء يستطيع أن يستنبط ملامح مشتركة تبين الأعمال الأدبية التي تنتج في مرحلة اجتماعية محددة ، لأن الأديب يستطيع تعبير تفاعله الخلاّق مع المجتمع ، فتصبح مثلاً القصيدة أو الرواية شكلاً ومضموناً معبرة عن موقف الأديب من مجتمعه والعالم .

كما أن تقدم المجتمع لا يحتم بالضرورة تقدماً بالأشكال الأدبية ولا انتكاسة المجتمع تؤدي بالضرورة إلي انتكاسة في الشكل الأدبي ؛ لان العلاقة بين الأدب والمجتمع ليست آلية ولا متوازنة بل متداخلة.

إن الأديب حين يكتب فإنه يكتب إلى جمهور من القراء له مستواه العلمي والثقافي ، فهو حين يكتب لابد أن يأخذ بعين الاعتبار مستوى القراء ؛ ولذا فإنه يهدف من وراء تجسيد رؤيته بشكل جمالي ، لا يسعى إلى إظهار

براعته الفنية أو مهارته اللغوية ، بل لكي يشاركه المتلقي التجربة بشكل يؤدي إلى تغيير وجهة نظره أو تعديلها أو تأكيدها.

علاقة الأديب بالمجتمع وبالجمهور ، وكيفية الوصول إليهما :

إن الأديب لا يمثل نفسه فحسب ، بل هو يمثلها ويمثل الآخرين ، فهو يعيش في مجتمع ، يتصل فيه بالناس كافة ، يعرف مشكلاتهم ، ويحس بها ، ويعاني معهم كما يعانون ، ويفرح كما يفرحون ، هو واحد منهم ، وهو أشبه بمقياس حرارة الجو ، هو المؤشر على واقعهم ، والدليل على حياتهم ، وقد يعبر عنهم مباشرة ، وهو بذلك يعبر عن الآخرين من خلال ذاته ، ومن خلال رؤيته لهم ، وقد يعبر عن نفسه ، وهو بذلك يعبر أيضاً عن الآخرين ، ولكن بأسلوب غير مباشر ، لأنه واحد منهم ، فهو جزء من المجتمع ، وتعبيره عن ذاته شكل من أشكال التعبير عن الآخرين ، وفي الحقيقة من الصعب فصل الفرد عن المجتمع ، أو المجتمع عن الفرد ، سواء في ذلك الأديب والشاعر والقاص والناقد والفنان التشكيلي والمسرحي ، وحتى حين يقدم الأديب أو الفنان عملاً غريباً عن المجتمع ، لا يمثل واقعه ولا يعبر عنه ، فإن عمله هذا يحمل دليلاً على طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ويحمل دليلاً على هذا المجتمع ، ولا بد من البحث عن سبب لبعد الأديب عن مجتمعه ، ولا بد من وجود دلالة معينة ، ولا بد هنا من ملاحظة أن الأدب يسعى دائماً إلى تطوير المجتمع والنهوض به والتقدم نحو ما هو أكثر تطوراً في الفن والفكر والحياة ، فليس من الضروري أن يستجيب الأديب دائماً إلى ما يفرضه عليه المجتمع ، بل على العكس ، فالأديب يرفض ما يمليه عليه المجتمع من تقاليد فنية ، والأديب يرفض دائماً ما استقر من مفاهيم وتقاليد ويسعى دائماً إلى التطوير والتجديد ، والأديب الحق هو الذي يرفض ما استقر ، ويثور على المألوف ، فالأديب يسبق مجتمعه ، ويقدم له ما هو أكثر تطوراً وتقدماً ، ومن المفروض أن يكون الأديب سباقاً ورائداً ومتقدماً ، ولذلك يحدث دائماً أن يرفض المجتمع في مرحلة ما أدباً ما ، ولكن سرعان ما يتقبله ويأخذ به ويعترف .

إذن كيف يتمكن الأديب العربي ، شاعرًا أم قاصًا أم روائيًا ، من الوصول إلى الجماهير العربية ، ومخاطبتها ، بعد أن سادت ثقافة الفضائيات ، ولغة الهجوم على الآخر وتشويه آرائه ؟ وهل يستطيع القراء على قلتهم أن يستجيبوا للأفكار والرؤى التي يدعوهم إليها الأديب العربي ؟ ولاسيما من كان يمتلك ثقافة واضحة ، وهل إن خطاب الأديب يمتلك الوضوح ؟ والعناية بالفن في آن واحد ؟

إن من مهمة الأديب في هذا العصر التعامل مع التلفاز بوصفه وسيلة تعبير عن الذات ووصول إلى الناس ، ومرة أخرى لا نعني بالأديب مجرد الأديب الذي يعبر بالكلمة المكتوبة ، إنما المبدع بالمعنى العام الواسع ، ويشمل

الكاتب والنحات والرسام ، ولا بد للكاتب أن يأخذ دوره، وقد بدأ كثير من الكتاب بوعي هذا التحول، فأخذوا بالكتابة للتلفاز، هذه هي الحال الراهنة للأدب، ويبدو الأمر واضحاً وضرورياً في البلاد التي تنتشر فيها الأمية، وينخفض فيها مستوى العيش والدخل، حيث يقل الإقبال على القراءة، ويكثر الإقبال على التلفاز، وتكون الثقافة بصرية بالصورة أكثر مما تكون الثقافة قراءة بالكلمة، وهو واقع لا بد من التعامل معه على أساس منه، لابالاستسلام له أو إدانته، وإنما بتطويره، وتطوير برامجه التلفزيونية لتكون أكثر رقياً، وأكثر تلبية لحاجة الإنسان إلى الأدب.

والأديب فيما يبدع من عمل لا يتوجه به إلى القارئ الكسول المسلوب ، والمتلقي الصامت غير المتفاعل ، بل يبحث عن القارئ الفذّ ، الباحث عن لذة التلقي ومتعة التأويل والغوص في أعماق النص بما فيه من ممانعة وسهوله ، ولذلك يعمد أغلب الكتّاب المتمكنين إلى التقية في نصوصهم واعتماد أسلوب السهل الممتنع والتلاعب في قوالب اللغة وأساليبها والإغماض وابتداع الجديد في أساليب التعبير ، فينتج نص لا يستسلم بسهوله ولا يهب نفسه للقارئ من أول قراءة ، يمانع ويماطل ليلهب عقل المتلقي الذي يستحق ذلك الشعور اللذيذ بالسعادة والمتعة عندما يكتشف ماأراد النص إيصاله من معاني .

هل العمل الأدبي وثيقة مطابقة لشخصية الأديب ؟

إننا حين نجعل العمل الأدبي دائماً وثيقة مطابقة للشخصية الحقيقية قد نقع في الخطأ والوهم، حيث نخال أنفسنا نتحدث عن شخصية في الواقع من خلال شخصية من ألفاظ وكلمات لا ترتبط البتة بصاحبها المجسد في دنيا الواقع.

وكثير من الدراسات الأدبية الحديثة مجمعة اليوم على الفصل بصفة قطعية بين الشخص وعمله الأدبي، لما هنالك من اختلاف بين صورة الأديب في الواقع وبين الصورة البشرية التي يجسدها عمله، فحالة الأديب النفسية قد تكون مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي تتجسد في العمل الأدبي.

ومن الممكن أن يكون الشخص الذي تتسم أعماله بالمرح والتفاؤل مفتقراً إلى ذلك تماماً إذا ماتُرك عمله الأدبي جانباً. وقد يحيا شخص آخر تتسم أعماله الأدبية بعمق انفعالي وبرؤية مأساوية حياة هادئة معتدلة. إن من أخطر الأمور أن ننسب إلى الإنسان ما نجده في العمل الأدبي، ما لم تكن لدينا شواهد واقعية مستقلة عن تقنيات العمل الفني. وفي غياب مثل هذه الشواهد يمكننا أن نتعرض لخطر الوقوع في الخلط واللبس، إذ نظن أننا نقول

شيئاً عن الأديب مع أننا في واقع الأمر نقتصر على وصف العمل وتفكيك شخصية من ألفاظ وكلمات لا من لحم ودم.

إن هذا يعني أن ليس للأديب شخصية يعبّر عنها، بل إنه يملك أداة تجتمع فيها الانطباعات والتجارب بصورة تعددية، وإن هذا التعدد لا يسمح بالتعبير عن شخصية واحدة داخل العمل. فقد لا تجد التجارب والانطباعات التي ترتبط بالإنسان ـ الأديب أي مكان لها في العمل الأدبي. بينما تجد تجارب أخرى تهيمن بقوة في العمل ولكنهها لا تلتصق بشخصية الأديب كما هي خارج بنية العمل الأدبي.

نريد أن نصل من خلال ما مرّ من كلام إلى أن الأدب لا يعكس شخصية حقيقة ثابتة لا تعرف التغير، وإنما الأدب كتلة من الأهواء والغرائز والميول لا تستقر على حال، بل إنها عرضة للظهور والخفاء والقوة والضعف تبعاً لمزاج الأديب نفسه. ثم إن الأدب أيضاً حلم قد يتخيل عوالم وأشخاصاً فينسب إليها مشاعر وهي لا توجد عياناً في الواقع الفعلي. ولعلّ هذا يشبه ما سمّاه القرآن الكريم بالهيمان، وذلك في معرض حديثه عن طبيعة الشعراء حين وصفهم بأنهم (في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون(. فهذا الوصف هو الأقرب إلى حقيقة الأدب كله ـ إنشائه ونقده ـ إذ لا يعدو أن تتحكم فيه الرؤية الحالمة وتوجهه المشاعر والانطباعات الوجدانية المتقلبة.

٣- المتلقي (المرسل إليه) :

لاشك كل مبدع بحاجة ، إلى من يتلقى منه الإبداع ، فالأديب يرغب أن يقرأ الناس نتاجه الأدبي ، والرسام يطمح إلى أن تطلع فئة من الجماهير على رسوماته ، وأن تصل أعمالهم إلى عدد كبير من الناس ، وإن كان للإبداع رسالة معينة ، يحرص المبدع على إبلاغها ، وانتقاء الطرق الجميلة ، لوصول هذه الرسالة للمرسل إليهم ، وان كانت هذه القاعدة لا تخلو من استثناء ، فقد وجد مبدعون لا يحبون أن يطلعوا الناس على نتاجهم الفني ، فماتوا وعرف بعد رحيلهم ، أنهم مبدعون.

وبما أن هنالك علاقة حميمية بين المبدع والمتلقي فإن على المبدع أن يحترم عقل المتلقي باعتباره مالكًا للنص لا ملكًا له ولا أسيرًا للأفكار والآراء المصاحبة له . وعلى القارئ أيضًا أن يحترم أفكار الكاتب وأن يتجنب التصادم المباشر معها دون فهم عميق لها والحرص على عدم الإقصاء والنبذ دون إدراك لمدلولاتها ، فما يرفضه اليوم سيتبناه في المستقبل من الأيام .

وهنا حقيقة يجب أن يعيها الجميع وهي أنه ليس هناك ما يعزل الناس عن الأدب ، أو الأدب عن الناس ، فالأدب يسعى إلى الوصول إلى الناس والتأثير فيهم ، والناس يسعون إلى الأدب ويرغبون فيه ، ولكن يحدث أن يقف بعض الناس عند مستوى من الثقافة ، أو عند فهم معين للأدب ، أو نوع من الأدب ، ويريدون للأدب كله أن يكون وفق هذا النوع أو هذا المستوى الذي وقفوا هم عنده.

الأدب في حالة تطور مستمر ، بل في حالة تجديد مستمر ، ومن هنا يحدث بُعد بعض الناس عن الأدب لأنهم لا يتابعون التطور ولا التجديد ، ولكن هؤلاء سرعان ما يتجاوزهم الزمن ، وينساهم ، ويظل الأدب في سيرورته نحو الأرقى والأجمل ، ويحدث أيضاً أن تتطور الحياة وتظهر فيه فنون وأنواع جديدة ، فيطغى نوع على نوع ، وهذه هي طبيعة الحياة ، ففي عصر ما ازدهر فن المقامة ، وهي القصة القصيرة المسجوعة والغريبة الألفاظ ، كمقامات الحريري وبديع الزمان الهمذاني ، وهي ابنة مرحلتها ، أفرزتها ظروف معينة واقتضت ظهورها ورواجها ، وقد انتهت ، وأصبحت مادة للدراسة ، ولا يمكن أن يتألق اليوم كاتب ما من خلال كتابته المقامات .

فعلى الأدباء أن يطوروا أدوات تعبيرهم وأشكال توصيلهم ، فقد أصبح التلفاز الوسيلة الأكثر تأثيراً في الناس من الكتاب والصحيفة ، والأسرع وصولاً إليهم والأسهل في التعامل معه ، فهو في كل بيت وفي كل محل وهو في الحافلة والسيارة والقطار والطائرة ، ومتابعته لا تحتاج إلى جهد كالذي تحتاجه القراءة ، وأياً ما كان فيه

من سلبيات، فلا بد من التعامل معه، وعلى الأدباء أن يدركوا أهميته، وألا يتركوه للمسلسل الضعيف والأغنية الهابطة والبرنامج البعيد عن القيم والأخلاق .

فأنت حين تقف أمام لوحة جميلة زاهية الألوان واضحة المعالم ومعبّرة فإنها بلا شك ستترك أثراً إيجابياً وانطباعاً جميلاً في نفسك وأن تحرك مشاعرك وفق الهدف الذي رسمت له وبذلك تكون قد أدت الرسالة التي أرادها الفنان إنك لتجد سمة عامة تميز الأدب الحديث وهي الرمزية والغموض والإغراق في التجديد والعدمية حتى إنك لتقف حائراً أمام ما يريده هذا الأديب وكأنما عجزت لغتنا الجميلة بألفاظها المعبرة ومعانيها الواسعة عن الإحاطة بالفكرة التي يريد الأديب إيصالها إلى المتلقي الذي ملّ بدوره هذا الكلام الذي يقوده إلى متاهات الضياع وسراديب الغموض. أليس من العدل أن نرحم عشّاق الأدب ومحبيه؟!

إن خلو الساحة الأدبية من الناقد الخبير البارع الذي يميز بين ما هو حري به أن ينشر وبين مايجب أن يحفظ في صدر صاحبه، فالحس النقدي هو بحد ذاته موهبة خلّاقة يتفرد به بعض البشر ينتج عن حسّ وبصيرة وعلم ومعرفة في المجال التي يتطرّق إليه .

وكلنا يذكر كيف كانت تضرب للنابغة قبّة في سوق عكاظ يأوي إليها الشعراء من كل الأمصار والبلدان فما رده مات واندثر وما أجازه طار حتى ملأ الآفاق وتناقلته الركبان إلى كل الجزيرة العربية. أليس غياب الناقد هو السبب في طغيان هذا الطوفان الذي شوّه لغتنا وأساء إلى أدبنا الخالد؟!

وثمّة أمر آخر وهو أن الأذن العربية أذن ذواقة وناقدة على اختلاف بيئاتها ومستوياتها تميز بين الغث والسمين، كيف وهو الذي نشأ وترعرع على سماع روائع الأدب الجاهلي وماتلاه من عصور جعلته ناقداً ومتذوقاً بالفطرة.

لكن ما يعنينا هنا هو أن جمهور القراء ليس سلبياً أي ليس مجرد متلقٍ للأعمال ، وإنما له حضور غير مباشر، أو مشاركة غير مباشرة ، فالجمهور ونوعيته يتدخل في تشكيل الأعمال الأدبية، وهو ما يؤكد أن عملية الإبداع الأدبي فعالية اجتماعية .

لذا كم نحن بحاجة إلى أدب جميل يهز مشاعرنا ويحلق بها في سماوات الخلق والإبداع، نحن بحاجة إلى أدب هادف يصور معاناة الإنسان العربي ويكون سفيرنا في المعركة الثقافية التي تتعرض لها أمتنا اليوم، إننا بحاجة إلى أدب مبدع وخلّاق يزيح هذه الغثاء الأجوف الذي شوّه ذوقنا وأدبنا وفكرنا.

عناصر الأدب

أولاً : الفكرة

تعريف الفكرة :

وجمعها أفكار وهي المعاني التي يتضمنها الأدب ، والشعور أو العاطفة التي صاحبت نقل هذه الأفكار والمعاني إلى الآخرين ، وهي لمسات فكرية شعورية نشهد آثارها في العمل الأدبي ، متجاورة أو متداخلة ، أو متفاعلة ، أو متنافرة..... وعلى هذا يبدو صعباً فصل الفكر من الشعور في المضمون الأدبي .

إذن فالمقصود بالفكرة هي الموضوع الرئيسي الذي يبني الأديب عمله الأدبي عليها من مديح أو هجاء أو وصف أو رثاء أو غير ذلك .

علاقة المعاني والأفكار بالألفاظ :

فالمعاني والأفكار تشكل أهمية كبرى في الأدب وفي الشعر على وجه الخصوص ، حيث إنه لا قيمة لقصيدة ذات موسيقى إيقاعية مع كلمات جوفاء لا معنى لها ؛ ولهذا فإنه لا يجوز للناقد أن ينسى في تقدير الشعر الفكرة أو المعنى ؛ لأن الشعر لن يحيا بالنغمات ، والكلمات الجوفاء ، ولابد من أن تمازَج الفكرة بالعاطفة ، والشعر الذي تعوزه الفكرة ، أو الذي يضم فكرة عادية ، شعر مزعج صادم للنفس .

اللفظ والمعنى عند النقاد الأقدمين :

وعلى ذلك فقد حرص النقاد الأقدمون على تواؤم اللفظ مع المعنى ؛ لما يؤديه المعنى من تأثير عندما يساق بألفاظ حسنة ، يقول ابن طباطبا : وللمعاني ألفاظ تشاكلها ، فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء ، التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض . وكم معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسته ، ثم يقول : وإذ قد قالت الحكماء : إن للكلام جسداً وروحاً ، فجسده النطق ، وروحه معناه ، فواجب على صانع الشعر أن يصنعه فيحسنه جسماً ويحققه روحاً ، أي يتقنه لفظاً ، ويبدعه معنى ، ويجتنب إخراجه ضد هذه الصفة .

ومادام الأمر كذلك فإن الأدب نوع من الإبانة ، وآلة للتواصل الفكري وأن نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم .

ومن ذلك نخلص إلى أن الأدب لون من النشاط الذهني والنفسي ، وللأفكار والمعاني والمعتقدات أهمية كبيرة في تكوينه ، وما الشعر مجرد لفظ ، وإيقاع ، وطيف خيال ، كما ليس بوسع الأديب أن ينفلت بصورة مطلقة من واقعه.

ما المقاييس الفنية التي نحكم بها على الفكرة :

١ ـ الوضوح : وضوح الفكرة، من خلال لغة تعبر عما يريد بسهولة ويسر.

٢ ـ امتزاج الفكرة بالشعور والعاطفة : فالنصّ أيّ نصّ إنما هو تجربة شعورية كما أشرنا.

٣ ـ العمق والغزارة : مدى إحاطته بالفكرة، وخروجها عن مألوف الإنسان العادي

٤ ـ الإقناع الوجداني والمنطقي : دعم الأفكار بالأدلة الوجدانية المستمدة من ثقافته وعاطفته وخياله، والأدلة العقلية المستمدة من ثقافته ورؤيته الفكرية.

٥ ـ الجدّة والابتكار : عدم التقليد أو التأثّر بالغير.

٦ ـ الامتداد الإنساني : ونعني به مدى انسجام النصّ مع القيم الإنسانية.

٧ ـ الصحّة وعدم الاضطراب : أن تكون الفكرة صحيحة مفيدة بعيدة عن التناقض.